الكذاب

حيال الفرد والمجتمع ؟

مالى أراكم تتهادون على الكذب تهافت الفراش فى النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة ، إلا أن يكذب الرجل فى الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو أن يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته ليرضيها .
« حديث شريف »

لانكون مغالين إذا قلنا إن الكذب أصل الرذائل ورأس الشرور ، ذلك لأن الكاذب يقلب الحقائق بكذبه ، ويعكس الأمور بافترائه ، يلمس الحق فيعدل عنه ، ويرى الباطل فيميل إليه ، لا خير فيه ، لا أمانة له ، لا وفاء عنده ، يقول ما لا يعتقد ، ويعمل ما لا يقول ، وتلك خصلة المنافق ، وشيمة الفاسق ، وعلامة المزور الغادر ، ودليل النصاب الفاجر ، فلقد جاء فى الأثر عن سيد البشر: آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتمن خان ".

ترى الرجل الكاذب فيأخذ حديثه المموه بلبك ، ومظهره الصناعى بتلبك ، تخاله ثقة أمينا ، فتثبت لك التجارب أنه غادر لئيم ، تركن اليه فى الملمات فيخونك فى أصعب الأوقات ، إذا أقرضته مالا لا يؤديه اليك ، وإذا عاهدته عهدا لا يحفظه لك ، وإذا أعطاك وعدا أخلفه معك ، وإذا حدثك حديثا نسج لك من خياله الكاذب ألوانا ، يغرر بك فى جميع ما يقول ، وفى كل ما يفعل ، لا يؤتمن على عرض ولا على سر ، ولا على مال ، فانطبق عليه قول النبى ﷺ : كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب ! .

ومن عجيب أمر الكذب أن الكذبة الواحدة ، تتطلب عدة كذبات لتغطيتها ، ذلك لأن الكاذب يخلق فى الدنيا بكذبه ما لم يكن ، يخلق خيالا لا يتفق مع الواقع ، وقد يضطره هذا الخيال الى أن يكذب كثيرا ليوفق بين الواقع والخيال ، وهذا محال ! !

ومن آفة الكذب أن يكون صاحبه نسيا ، فان كان كذلك ، كان المنادى على نفسه بالخزى والفضيحة فى كل طرفة ولحظة ، ومن أجل ذلك قيل فى الأمثال : إن كنت كذوبا فكن ذكورا . ويقول ابراهام لنكلن : إنك تستطيع أن تخدع جميع الناس نصف الزمن ، ونصف الناس جميع الزمن ولكنك لا تستطيع أن تخدع جميع الناس جميع الزمن ! .

ولو حللنا نفسية الكاذب وتعقبنا سبب كذبه ، وأصل افترائه ، لعرفنا أن عدم ثقته بنفسه ، ونقص إيمانه بربه ، وشدة خوفه من الناس ، وإسرافه فى حب المادة ،

وجريه وراء الشهرة ، كل هذه الأسباب دفعته الى الكذب دفعا ، فاستمرأ واستعذبه ، حتى صار له عادة ، وحتى تطورت العادة فأصبحت غريزة اختلطت بلحمه ودمه ، فلا يستطيع التخلص من عادته ، ولا الإقلاع عن غريزته إلا بالجهد الجهيد ، والتعب الشديد ذلك لأنه ملأ عقله بالمفتريات ، وغش ضميره بالأكاذيب يرتكب كل جريمة ويقترف كل كبيرة ، ثم يخفيها تحت ستار كذبه وفي قالب افترائه ، وناسى أنه لا بد سينفضح يوما أمره ، فيلفظه الناس لفظ النواة ، وينفرون منه ، نفورهم من أجرب أو أبرص .

روى عن أرسطو أنه سئل : ما ضرر الكذب ؟ فاجاب : ألا يثق الناس بقولك حين تصدق ، هذا مع العلم أن كل إنسان فى هذه الدنيا بحاجة شديدة الى ثقة الناس به ، فمن فقد ثقة الناس فقد أضاع نفسه ، وخسر خسرانا مبينا .

نعم : إن الكاذب ضار لنفسه وعشيرته ووطنه والناس جميعا ، يضلل بالعقول ، ويعبث بالذمم ، ويهتك الأعراض ، ويسلب الأموال ، يفرق بين الوالد وولده ، والأخ وأخيه ، والأسرة وأفرادها ، والمواطن ومواطنه ، والتاجر وشريكه ، والصديق وصديقه ، فهو يخر فى جسم المجتمع كما يخر السوس فى هيكل السفينة وهى فى عباب اليم ، لا يهمه أن تغرق ، فيهلك من فيها ، مادام فى ذلك نفعه وتسليته !!

هذا وإن من ضروب الكذب حذف بعض الحقيقة ، بذكر بعضها ، وتناسى البعض الآخر الذى فيه إعلاء للحق وإظهار للخير ، وأن يبالغ فى قوله مبالغة تجعل السامع يفهم منه أكثر من الحقيقة ، مضللا له ، واضعا بينه وبين الواقع ستارا من التمويه والتورية والتضليل ، إتباعا لمرضاة نفسه الفاسدة وشيطانه الأثيم !

ولا يختلف اثنان فى أن الكذب اذا فشا فى مجتمع كان ذلك إيذانا بانحلاله ، ونذيرا بدماره وخرابه ، فإذا كان الكذب رذيلة من أدنا الرذائل وأسفلها ، فالصدق فضيلة من أحسن الفضائل وأرفعها ، ذلك لأنه صرح الأخلاق الوطيد ، وأساسها القوى العتيد ، الذى تبنى عليه المجتمعات ، وتشيد الأمم ، ولا يمكن أن يوجد عمران إلا بالتفاهم والتعاون بين الناس على أساس الصدق والحق والعدل .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، وحسبنا دليلا على أن الكذب رأس الذنوب وسبيل الجرائم ، ما روى عن الأعرابى الذى جاء إلى رسول الله فأسلم ، ثم قال : يارسول الله ، إنى أوخذ من الذنوب بما ظهر ، فانا استمر بخلال أربع : الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، والكذب ، فأيهن أحببت تركت

لك سرا ، فقال رسول الله : دع الكذب ، فلما ذهب من عند رسول الله ، هم بالزنا ، فقال يسألنى رسول الله : فإن كذبت نقضت ما جعلت له ، وإن أقررت ، حددت ، فلم يزن ، ثم هم بالسرقة ، ثم هم بشرب الخمر ، ففكر فى مثل ذلك ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : قد تركتهن جمع .

فويل للمجتمع الإنسانى من عالم يضلل الناس ، يحرف الكلم عن مواضعه ، ليبنى لنفسه مجدا زائلا ، ومن تاجر يحنث فى أيمانه ليروج بضاعته المغشوشة فيكسب المال الحرام ، ومن محام يخدع القضاء ويغرر بالعدالة ، فيقلب الحقائق ، لينجى المجرم ويوقع بالبرىء ، أملا فى إذاعة صيته ، وحصوله على المال الوفير ظلما وعدوانا .

وكما أن للكذب صورا متنوعة يتمثل فيها ، فللكاذب أشكال مختلفة يظهر بها ، فالمتكبر كاذب ، لادعائه لنفسه منزلة أعلى من منزلته ، والمنافق كاذب ، لأن لسانه ينطق بغير ما فى قلبه ، يخادع الله والناس بالإثم والبهتان ، وما يخدع إلا نفسه ، والفاسق كاذب ، لأنه لم يتق الله فيما تعدى من حدوده ، والمرائى كاذب ، لأنه يقابل الناس بمائة وجه ووجه ، له ظاهر يخالف باطنه ، وله باطن أسود من ظاهره .

فلينب إلى الله توبة صادقة نصوحا كل من وقع فى إحدى صور الكذب ، أو بعضها أو جميعها ، وليندم ندما شديدا على مااقترفته جوارحه لنفسه ، وعشيرته ، ووطنه ، وليعزم عزما أكيدا على أن يقول الحق والصدق والخير لوجه الله ، لا يخشى لومة لائم ، يقول للمحسن أحسنت ، وللمسىء أسأت ، فذلك خير وأبقى وأنفع وأبقى من آخرة حالكة السواد شديدة تنتظره ، إن دوام على كذبه ، وليحذر أن يطغيه ما جمع من مال حرام ، وما أصبح له من ثروة طائلة ، نتيجة الكذب والتضليل ، ولا يظن أن شهرته الكاذبة تنفعه إذا ماجد الجد ، وحزب الأمر ، وحان وقت القصاص .

وليعلم كل عاقل : أن الكمال لله وحده ، وأن النقص من صفات البشر ، فليس عيبا أن يجد الإنسان فى نفسه عيبا أو عيوبا ، ولكن العيب كل العيب أن يعرف هذه العيوب من نفسه ، ثم لايسعى لعلاجها ، والخلاص منها ، وأفضل الوسائل لعلاج النفس مراقبة أعمالها ، ومحاسبتها على كل صغيرة وكبيرة ، وزجرها عما يخالف الحق والخير زجرا أليما .

والنفس كالطفل ان تهمله شبَّ على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرعى فلا تسم

كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وان هما محّناك النصح فاتهم

ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

واعلم أنك ان كنت تكذب لإرضاء الناس ، فثق أن رضاء الناس جميعا غاية لا تدرك فعليك أن تعمل لإرضاء الله وراحة ضميرك ، ولا يهمك بعد ذلك أغضب الناس عليك أم رضوا عنك ، واسمع قول ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب : لأن يضعنى الصدق — وقلما يفعل — أحب الى من أن يرفعنى الكذب ، وقلما يفعل !

وقد يفهم كثير من الناس الصراحة — وهى الصورة القوية لصور الصدق — على غير وجهها الصحيح ، ذلك أنهم يفهمونها بأنها الافضاء إلى محدثك بكل ما تعلم ، من غير تحفظ أو تحرج فى جميع الظروف والأحوال ، وهذا ليس صحيحا ، فهناك مجال للقول ، ومجال للصمت ، فليس من الصراحة أن تؤذى غيرك ، أو تجرح إحساسه من غير ما حاجة تدعو إلى ذلك ، فتوقعه فى هوة اليأس والقنوط ، أو تدفعه إلى عمل ضار ، أو تلحق بنفسك ضررا عن طريقه .

على أن للكذب بعض صور مباحة ، أباحها الاسلام لشدة رعايته لمصالح الناس ، لدفع مضرة لا يمكن أن تدفع إلا به ، أو الحصول على نفع عام لا غنى عنه ، ولا يستطاع الوصول إليه إلا به ، وقد حصر ذلك فيما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مالى أراكم تتهافتون على الكذب تهافت الفراش فى النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة ، إلا أن يكذب الرجل فى الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو أن يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته ليرضيها" . وفى هذا التصريح ما فيه من السعى الحثيث وراء السلام الاجتماعى ، ذلك لأن الاصلاح بين الناس عمل نافع وجميل ، وأن صفاء المودة بين الزوجين من أهم الأغراض التى يقصدها الاسلام ، فللزوجين أن يطرى أحدهما الآخر بما ليس فيه ، لينمى الحب ويقوى الاخلاص بينهما ، وإن الكذب فى الحرب ليس كذبا فى الحقيقة ، لأن الدولة التى تعلن الحرب على دولة أخرى ، قد أعلنتها بالا تفاهم بينهما ، وحيث لا يوجد بينهما تفاهم — أى أنها ستفعل معها كل ما تستطيع أن تفعله من وسائل الايقاع ، لتتغلب عليها وتقهرها — فإنها كمثل من قال لآخر : سأقص عليك خبرا كاذبا ، ثم يقصه عليه ، فليس ذلك بكذب . لأنه لم يخبره بغير ما يعتقد ، فإن اعتقد السامع صدق الخبر بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، وفى هذه الحالة ينتفى سبب تحريم الكذب الذى هو استغلال ثقة السامع ، والمتحار بان لا ثقة لأحدهما فى الآخر .

ولا شك أن على الإنسان العاقل أن يتدبر كثيرا قبل أن يقدم على الكذب المباح، فكثيرا ما يخدع نفسه، ويسمى كذبه عملا مباحا، وهو ليس بمباح، ذلك لأنه شديد المحاباة لنفسه، كثير الاعتداد برأيه ، ولخير ألف مرة أن يخطئ الإنسان فيجتنب كذبا مباحا من أن يزل فيكذب كذبا غير مباح ، كيلا يتجرد من الإيمان فيسقط فى هاوية النفاق ، قال تعالى :

" إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ " :

وقال عز وجل :

" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ " :

على أنه توجد فى هذه الأيام شرزمة من الخرفين، يزعمون أن الكذب مباح فى المزاح، ويدحض زعمهم هذا الحديث الشريف القائل : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحتى يتجنب الكذب فى مزاحه . والحديث الشريف : ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك القوم . . ويل له ! ، ويل له ! وينبغى ألا يفهم بأن المقصود هو تحريم المزاح تحريما باتا ، فمزاح الرسول كثير متواتر ، وكان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا .

أما تلك العادة السخيفة المعروفة " بكذبة أبريل " فمن الآراء الراجحة فى تعليلها أن أوروبا أخذتها عن فرنسا التى اتبعت " التقويم الجديد " عندما أعلن شارل التاسع عام ١٥٦٤ ميلادية أن العام يجب أن يبدأ بأول يناير ، فانتقل إلى أول يناير كل ما كان لأول أبريل (بدء السنة على حساب التقويم القديم) من الاحتفال والتهادى والرسائل، غير أن فريقا من المحافظين ، ظلوا ناقمين على " التقويم الجديد " متمسكين بالتقويم القديم ، فاتخذهم أنصار " التقويم الجديد " غرضا لسخريتهم فى إبريل ، بإرسالهم إليهم هدايا كاذبة ، وأخبار ملفقة ، كأنهم يحتفلون معهم بيومهم هذا على هذه الطريقة المضحكة ، ولما اتصل الشرقيون بالغربيين ، نقل بعضهم هذه العادة السمجة إلى بلادهم ، وأطلقوا عليها اسم " كذبة ابريل " ، أما سبب تسمية هذه العادة " بسمكة إبريل " عند الفرنسيين، فيرجع إلى أن السمك فى إبريل يكون صغيرا ومن ثم يسهل صيده، كما يسهل صيد " مغفل إبريل " فى زعمهم !

فما أحرانا معشر الشرقيين عامة ، والمسلمين خاصة إلى محاربة هذه العادة السمجة السخيفة التى تدفع الانسان إلى الاضرار بأخيه الانسان ، ضررا قد يكون جسيما من ناحيته النفسية أو المادية بسببها ، وفق الله الجميع إلى الحق والصدق .

أحمد محمد رضوان .

أمين مساعد بمكتبة وزارة المالية